خطبة صلاة الجمعة 22/11/2013 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مثبِّتات في زمن الأزمة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

فأوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: 27].

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: 7].

أخرج البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب، أيُّ عبادك أحبُّ إليك أُحِبه بحبك؟ قال: يا داود، أحبُّ عبادي إليّ نقي القلب نقيّ الكفين، لا يأتي إلى أحدٍ سوءاً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحِبَّني وأحِب من يحبني، وحَبِّبني إلى عبادي .

قال: يا رب، إنك لتعلم أني أُحبُّك وأُحِب من يُحبك، فكيف أحبِّبك إلى عبادك؟!

قال: ذكِّرهم بآلائي وبلائي ونَعمائي.

يا داود، إنه ليس من عبدٍ يعين مظلوماً أو يمشي معه في مظلمته، إلا أُثبِّتُ قدميه يوم تَزلُّ الأقدام».

وروى الطبري بإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي**».

أيها الإخوة:

في الأزمات تزيغ قلوب أقوام وتزول أحلام أقوام وتتزلزل عقائد أقوام.

ولكن بالمقابل: يربط الله على قلوب أقوام فيزدادون إيماناً مع إيمانهم، وثباتاً إلى ثباتهم، وتسليماً على تسليمهم.

بنفسي سيدَنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما أخبرَته قريشُ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنه أُسرِيَ به إلى بيت المقدس وعَرج إلى السماء في ليلةٍ، تريد بذلك زلزلةَ إيمانه وزعزعةَ يقينه بالرسالة, فازداد إيماناً وسُمي يومها صِدِّيقاً.

نقَل الإمام الطَّبري في تفسيره: (قال المشركون: تعشَّى محمدٌ فينا وأصبح فينا، ثم زعم أنه جاء الشام في ليلة ثم رجَع! وايم الله، إن الحِدَأَة لتجيئُها في شهرين: شهراً مقبِلة وشهراً مدبِرة.

ما كان محمد لينتهي حتى يأتي بكِذْبة تخرج من أقطارها.

فأتوا أبا بكر فقالوا له: هذا صاحبك يزعم أنه أتى الشام في ليلته فصلى ببيت المقدس ثم رجَع!

فردَّ أبو بكر: أوَ قَد قال ذلك؟ والله لئن كان قالَه لقد صَدَق، فقالوا: تصدّقه إن قال ذهب إلى بيت المقدس ورجَع في ليلة؟

قال: أصدِّقه بخبر السَّماء –والسَّماء أبعَد من بيت المقدس– ولا أصدقه بخبر بيت المقدس؟!

ثم أقبَل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله: يا نبيَّ الله، أَحَدَّثْتَ هؤلاء القوم أنك جئت بيتَ المقدس هذه الليلة؟

قال عليه الصلاة والسلام: نعم.

فسأله أبو بكر أن يصفَه له، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر، فكلما وصف منه شيئاً قال أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام لصاحبه: وأنت –يا أبا بكر– الصِّدِّيق).

يزيغ عند الأزمات أقوام, ويزيد إيماناً عندها أقوام.

بروحي جيلَ الصحابة الكرام وقد نزل بهم في أُحدٍ ما نزَلَ وحلَّ بهم من البلاء ما حلَّ: سبعون شهيداً، وجيشٌ من الجرحى، وكبدُ حمزة الممزَّق، وشماتة الأعداء؛ وما سمعنا بأحد منهم تزلزل إيمانه أو تزعزعت عقيدته، بل إن المرأة فيهم وقد أصيبت بزوجها وأخيها وأبيها لما نُعوا لها قالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال: فأُشير لها إليه حتى إذا رأتْه قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدَك يا رسول الله جَلَل.

إنه ثباتٌ في موطن الزلزلة.

وحدَهم المنافقون قالوا يومَها: لو كان نبيَّاً ما ظهروا عليه ولا أُصيب منه ما أُصيب، لكنَّه طالبُ مُلك.

فكيف يثبت المرء في الشدائد، وكيف يصمد عند النوائب، وما المعين له في الأزمة ليقوى ويهدأ؟

عنوان خطبة اليوم:

(مثبِّتات في زمَن الأزمة)

أيها الإخوة:

يجد الباحث في القرآن أربعة أمور تثبِّت الإيمان وتربط على الجَنَان في وقت الشِّدَّة والعسرة. هذه الأربعة هي مادة الخطبة.

المثبِّت الأول: تلاوة القرآن الكريم وتدبّره والعمل به:

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]

بُعِثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في قومٍ جفاة، شديدةٍ عداوتُهم، لا يكادون ينتهون من حملة أو مكيدة حتى يشرعوا في تدبير أخرى مثلِها أو أشدّ أو أمرّ، فكانت تنزُّلات القرآن بين الفينة والأخرى تواسيه وتثبّته وتشدُّ أزره وعزيمته؛ لما فيها من تجديد الاتِّصال بالملأ الأعلى كلَّما ادْلَهَمَّ الأمر أو اشتد الخَطب، ولما فيها من تعليمٍ وإرشاد.

ولئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام يصبرون ويثبتون ويصمدون أمام المحَن والأزمات عند تلاوة القرآن وتدبُّره، فحريٌّ بكلِّ مؤمنٍ أن يكون القرآن جليسَه والآياتُ أنيسَه في الأوقات عامَّة والأزمات خاصَّة.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: 77]

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: 48، 49]

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 135]

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42]

تلاوة القرآن الكريم وتدبُّره والعمل به من عوامل الثَّبات في الأزمات.

تذكرون -أيها الإخوة- وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف طاشَت أحلام الناس، حتى إنَّ سيدَنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل يقول: (إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات.

ووالله، ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليقطِّعن أيدي رجال وأرجلَهم يزعمون أنه مات).

فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه واستبان الخبر ثم تلا على الناس قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: والله لكأنَّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، فتلقاها منه الناس كلُّهَم، فما أسمَع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال عمر رضي الله عنه: (والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفتُ أنه الحق).

فأوَّل ما يثبت الإيمان ويربط على الجَنان في الأزمات: تدبُّر القرآن الكريم وتلاوته والعمل به.

المثبت الثاني: قراءة السِّيرة وقَصص الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]. قال ابن جريج: (نثبّت به فؤادك: أي نصبّر قلبك حتى لا تجزع).

فقد قصَّ القرآن الكريم على النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين قصص الرُّسل والأنبياء، متحدثاً عن الأزمات التي وقعوا فيها والكرباتِ التي أحاطَت بهم، والشدائدِ التي لحقتهم، فصبروا وثبتوا ورضوا وأعدّوا لكل وقتٍ عدَّته، فنصرهم الله وجعل العاقبة للحق وأهله والخذلانَ على البغي وأهله.

فيقص القرآن الكريم علينا رميَ إبراهيمَ عليه السلام في نار النمرود، ورميَ يوسفَ عليه السلام في جبِّ إخوته، ويحدثنا عن ظلم فرعون لموسى وإجرام اليهود بعيسى، ويذكر بغيَ قومِ شعَيب وضلالَ قومِ لوط وجحودَ عادٍ وثمود، ... فكان ماذا؟

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: 66 – 68].

ونقرأ في السيرة النبوية الشريفة ثلاثاً وعشرين عاماً من حياة الدعوة أزماتٍ وشدائدَ وهزات، والنبي صلى الله عليه وسلم صابر مرابط ثابت، فكان ماذا؟

صدَق الله وعدَه، ونصَر عبدَه، وأعزَّ جندَه، وهزم الأحزاب وحدَه.

ثاني ما يثبِّت الإيمان ويربط على الجنان في الأزمات: قراءة السِّيرة وقصص الأنبياء.

المثبت الثالث: العمل بالعلم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66 – 68]

فأن تعمل بما تعلم من الخير، بابٌ عريض للثَّبات في الأزمات:

أن تعين الخلق بإطعام الطعام وبذلِ السلام وصلة الأرحام.

أن تواسي المصاب وتشدّ أزر المبتلى وتفكّ العاني وتيسر على المعسر.

أن تحضّ على الصَّدقات، وتسعى في إسكان العائلات، وتشفع عند ذوي الوجاهات، وتقضي للناس الحاجات.

إنَّ هذا العمل بما تعلم من الخير يسهِّل ويهوِّن المصيبة، ويثبّت قلبك وجنانك.

بل إن أهل الإرشاد النفسي والطب النفسي اليوم يُجمِعون على أن واحداً من المعِينات على الخروج من الصَّدمة النفسية دعوةُ المصاب إلى العمل والحركة والانخراط ثانية في المجتمع.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: 66]

ثالث ما يثبت الإيمان ويربط على الجنان في الأزمات: العمل بالعلم.

المثبت الرابع الأخير: اللَّجأ إلى الله بالدعاء والضراعة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 74]

فالمثبّت هو الله، والمعين هو الله، والمؤيِّد هو الله.

قال سبحانه: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: 12]

وقال: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: 27]

روى الترمذي عن شهر بن حوشب قال: قلتُ لأُمِّ سلمة رضي الله عنها: يا أُمَّ المؤمنين، ما كان أَكْثرُ دُعاءِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إِذَا كان عندكِ؟ قالت: كان أَكثرُ دُعَائه: «**يا مُقَلِّبَ القُلوبِ، ثبِّت قلْبي على دينك**».

وفي مسند الإمام أحمد عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ قَالَ: «**يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ**».

أيها الإخوة:

هذه أمور أربعة تثبّت الإيمان وتربط على الجنان في وقت الشدَّة والعُسرة.

- تلاوة القرآن الكريم وتدبره والعمل به.
- قراءة السيرة وقصص الأنبياء.

- العمل بالعلم.
- اللجأ إلى الله بالدعاء والضراعة.

والحمد لله رب العالمين